

مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية

بعض ما في العدد 110:

- ملف «خمسون عاماً على مايو 68» :

[أدغار موران، لوك فيري، رفائيل كالبوسيرير، خواكين استفانيا، مارغو أنطونيوس سواريش، كريستيل ديديا، فابريسيو ميخيا مدريد]

- فردينان دوسوسور والشعر العربي
- الطاقات البديلة ودورها في تحقيق التنمية
- استلهامات محاورة النص (شومسكي - سامي أدهم)
- حوارات إبداعية: جيجيك، بورخيس، تود غيتلين
- الفلسفة المعاصرة (اللحظة الماركسية المفسِّرة: نحو باديو وجيجيك)

غير مخصص للبيع

كتابات معاصرة 110

فنون وعلوم

مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية

مجلة محكّمة العدد 110 / المجلد 28 (شباط ـ آذار 2019)

توجّه جميع المراسلات
إلى رئيس التحرير:
بيروت/ شوران
ص.ب: 136101
هاتف: 01312733

صاحبها ورئيس التحرير المسؤول

الياس لحود

الخطوط: سمير الحداد

• **السعر:** ☐ لبنان: 5000 ل.ل. ☐ سوريا: 3 دولارات ☐ العراق: 3 دنانير ☐ الأردن: 5 دنانير ☐ السعودية: 20 ريالاً ☐ الكويت: ديناران ☐ الإمارات: 25 درهماً ☐ البحرين: 3 دنانير ☐ قطر: 20 ريالاً ☐ عُمان: 3 ريالات ☐ مصر: 10 جنيهات ☐ الجزائر: 25 ديناراً ☐ المغرب: 30 درهماً ☐ صنعاء: 25 ريالاً ☐ تونس: 5 دنانير ☐ السودان: 30 جنيهاً ☐ ليبيا: ديناران ونصف ☐ موريتانيا: 250 أوقية ☐ ألمانيا: 12 ماركاً ☐ فرنسا: 6 يورو ☐ بريطانيا: 3 جنيهات ☐ إيطاليا: 6000 ليرة ☐ تركيا: 10000 ليرة ☐ السويد: 25 كوروناً ☐ هولندا: 10 فلورنات ☐ النمسا: 50 شلناً ☐ قبرص: 3 باوندات ☐ كندا: 7 دولارات ☐ الولايات المتحدة: 6 دولارات.

• **الاشتراك السنوي:** 100 حتى 150 دولاراً للمؤسسات بما فيه أجور البريد الجوي المضمون. 120 دولاراً للأفراد.

• الإخراج الفني: هوساك كومبيوتر برس

تلفاكس: 345687 1 بيروت/ E-mail: akramjamaleddine@gmail.com

• التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات:

بيروت ـ هاتف: 361517 (1) ـ 368007 (1) (00961) ـ فاكس: 366683 01.

الاشتراكات والإعلانات: يتم الاتصال بشأنها مباشرة مع رئاسة التحرير أو من ينوب عنها

KITABAT MOUACIRA

ARTS & SCIENCES

N° 110, Vol 28 (Fev - March 2019)

Beyrouth - Schouran B.P: 136101

Tél: (00961) 1 312733 / 3 582837

المحتويات

كتابات معاصرة 110

مختار زواوي

فردينان دو سوسور والشعر العربي

ومسائل أخرى في اللسانيات المعاصرة

[يقول الجزائري د. مختار زواوي صاحب كتاب «دو سوسور من جديد/ مدخل إلى اللسانيات»]: كانت لدو سوسور مراسلات علمية أشرك فيها عدداً من معاصريه جملة من مسائله العلمية التي نظر فيها، وأطلعهم على بعض من تصوراته الفكرية التي لاحت له. لقد راسل، وراسله، أنطوان مايي (1866-1936)، وشارل بالي (1867-1947)، وبودوان دو كورتوني (1845-1929)، ولويس هافي (1849-1925)، وجيوفاني باسكولي (1855-1912)، وماكس فان برشام (1863-1921)، وفيل تموسون ( )، ولقد جمعت الباحثة كلوديا ماخيا كيخانو جميع مراسلات دو سوسور في مؤلف واحد. ولئن كنا نروم التوكيد على ما تبرزه هذه المراسلات من مسائل قد لا يسعنا الاطلاع عليها إلا من خلال التنقيب فيها، فإن اهتمامه بالشعر العربي خيرُ مثال على ذلك، وإنها لعمري لمسألة لـــم نجد من الباحثين المحدثين من أشار إليها ولو الإشارة العابرة. لقد كان ماكس فان برشام ممن امتهن الأركيولوجيات «archéologie» الإسلامية، وفضلاً عن صلة القرابة التي كثيراً ما كانت تقربه من سوسور منذ صباهما، فقد أسهم مشوارهما العلمي في توطيد هذه العلاقة وتمتينها طوال حياتهما. ولئن أكملا تعليمهما الابتدائي بالمدرسة نفسها بجنيف، والتحقا معا بجامعة ليبزغ الألمانية، ليتحصلا منها على دكتوراهما، فإن اهتماماتهما العلمية سرعان ما افترقت السبل بهما، إذ بينما اتجه دو سوسور نحو مدارسة الألسن، انكب فان برشام على دراسة الحضارة الإسلامية ولسانها العربي، وتناول في دكتوراه موضوع «الملكية الإقليمية والضريبة العقارية في عهد الخلفاء الأولين»، وهي الرسالة التي تطورت عن مشروع ترجمة فصل من كتاب الماوردي حول ضريبة الخراج، وإنا نحسبه، استنادا إلى إشارة برشام في دكتوراه، الباب الثالث عشر، في وضع الجزية والخراج من كتابه الأحكام السلطانية...وهكذا مع د. مختار زواوي وما أرسله بحثاً بعنوان فرديناند دو سوسور والشعر العربي ومسائل أخرى في اللسانيات المعاصرة حيث لم نكن بعدُ في عصر الرقميّات المبتلِعة لكل وقتنا وأعمالنا وكانت لنا حسب سيرة دو سوّور اهتمامات وانشغالات لا حدود لها ولا أبعاد!!!



نروم الحديث، في هذا المقال، عن مسألتين اثنتين: عن سر اهتمام فرديناند دو سوسور (1857-1913)، مؤسس اللسانيات الحديثة، بالإيقاع، وعن موقع الشعر العربي من البحث في هذه الواقعة الشعرية. وتندرج هاتان المسألتان السؤالان ضمن مشروع العودة من جديد إلى فكر دو سوسور، نتيجة العثور، سنة 1996، على مخطوطات في اللسانيات العامة ومسائل أخرى. وقد قاد هذا الاستكشاف الباحثين المعاصرين إلى معاودة النظر في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بالنقد والتمحيص من جهة، وفي مراسلاته العلمية ومذكراته الخاصة ومحاضراته، ومقالاته المنشورة وبحوثه الأكاديمية بالبحث والتنقيب من جهة أخرى، قصد تبديد الصورة النمطية التي توارثتها عنه أجيالٌ من الباحثين تختزل هذا الفكر المتنوع المتعدد، في جملة من المقولات، بات جليا أنها لا تعبر عنه تعبيرا سديدا. ولعل أهم النتائج التي خلص إليها هذا المشروع وفاتحته التوكيدُ على عدم فصل دو سوسور بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، خلافًا لما كان يعتقد من أن لسانياته لـم تكن تُعنى بالفرد المتكلم، واكتفت بمقاربة اللسان مقاربة آنية، محايثة، على نحو ما يزعم كتاب المحاضرات المنشور من قبل شارل بالي وألبير سشهاي، وجملته المشهورة، المزعومة التي اختتماه بها: «إن موضوع اللسانيات، الوحيد والحقيقي، هو اللسان، في ذاته ولذاته»[19].

لقد ركنت لسانيات القرن الماضي إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فأسست لنا مدارس وأنشأت نظريات راحت تدارس الوقائع الشعرية قصد استكشاف بِنية النص (نثرًا كان أو شعرًا) والتعريف بالعلاقات التي تقيمها عناصره فيما بينها، ولو أنها اهتدت إلى استكشاف مخطوطات دو سوسور، وتحققت من بحوثه في الشعر اليوناني، والشعر الفرنسي، وغيرها من اهتماماته الأدبية، لأدركت أنه كان يروم استحداث نسق مفهومي يقارب به الواقعة الشعرية مقاربة أصيلة جديدة. لكن قلة تحقيق مخطوطاته المودعة بمكتبي جنيف وهارفارد ونشرها، وقلة العناية بتكوين دو سوسور

العلمي والفلسفي واللسانياتي، حالا دون فهم سديد لهذا الفكر المتعدد، وسدّ المنافذ دون إمكانية الولوج إلى عالمه وتحديث مشروعه.

*** معارف دو سوسور الأدبية واللسانية والترجمية**

لقد كان لدو سوسور، خلافاً لما هو مُغيّب عنه في أدبيات اللسانيات الحديثة، اهتمامٌ بالأدب والشعر والترجمة، فقد باتت المعرفة العلمية، والأدبية، واللسانية منذ بدايات نضج مشروعه الفكري، أهم روافد تفكيره اللسانياتي، فقد حصّل دو سوسور منذ مراحل تعليمه الابتدائية الأولى، أي إلى نهاية سنة 1872، معرفة جيدة في عدد من الألسن، من مثل الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية، واليونانية، واللاتينية، وهي المعرفة التي ألـهمته الرغبة في صياغة نسق شمولي للألسن. لكن هذه المعرفة ما كانت لتستوي دون معرفة باللسان السنسكريتي. لأجل ذلك، انكب دو سوسور، بإيعاز من أدولف بكتي، على تعلم هذا اللسان، لما كان له من أهمية بالغة في الدراسات المقارنة آنذاك، من خلال قراءة كتاب النحو المقارن لفرانز بوب، منذ سنة 1874. وليس لنا أن نعيد التوكيد على أهمية موقع اللسان السنسكريتي ضمن معادلة اللسانيات التاريخية المقارنة، إذ بات منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر عنصراً رئيساً في ممارسات النحاة المقارنين، ومن حذا حذوهم على امتداد النصف الثاني منه والعصر الذي تلاه، وسعيها إلى إثبات القرابة بين الألسن الهندية الأوروبية. ولأننا أرجأنا الحديث عن علاقة فكر دو سوسور بالفكر الهندي إلى الفصل الثاني من الباب الثاني، فإننا نقصر الحديث عن معارفه اللسانية والترجمية بالألسن اليونانية، واللاتينية والألمانية.

ولقد تجلت معارفه اللسانية هذه في مجال الترجمة، فقد بات معلوما أن دو سوسور مارس منذ سنوات المدرسة، كما هو معهود في برامج التعليم الابتدائي بسويسرا، تمارين في الترجمة في الفترة الممتدة بين 1872 و1874، ولئن لم ترتقِ الترجمة آنذاك إلى مستوى الحرفية، إلا أنها كانت تدرس في سبيل تعليم الألسن الأجنبية. بيد إن إقبال دو سوسور على الترجمة سرعان ما تجاوز أطر التعليم المؤسساتي، فأورثته ممارستُه لها حبا لها، وتعلقا بالترجمة الشعرية التي باتت بالنسبة إليه ميدان اختبار وإبداع. ولقد احتفظت مكتبة جامعة جنيف بعدد من هذه المحاولات التي تحصلت عليها ضمن ما تحصلت عليه سنة 1996 من مخطوطاته. ولقد عكف عدد من الباحثين المحدثين على إبراز منزلة الترجمة من فكر دو سوسور اللسانياتي، ففي أثناء السنوات الأخيرة من حياته، وفي أثناء محاضرات السنة الثالثة (1910-1911) من محاضراته في اللسانيات العامة، التي نشرها شارل بالي وألبير سشهاي، اجتهد دو سوسور في إبراز ما يمكن أن يجنيه اللغوي من أبحاث المترجمين، وأشار هنالك إلى الدور الذي تضطلع به الترجمة في ثبات الألسن[20]. أما معرفته باللسان اليوناني فقد تجلت في ترجمته لعدد من أشعار اليونان وتجسدت فيها، من مثل ترجمته للشاعر اليوناني أسخليوس «Aeschylus» (525-456 ق.م.) الذي نقل عنه إلى الفرنسية قصيدة أغاممنون «Agamemnon»، وقد نقلها إلى العربية لويس عوض وقدّم لها بمقدمة فيها اجتهد في التعريف بالفن الذي ينتمي إليه نص أغامـمنون، وهو الفن التراجيدي. إن إقبال دو سوسور على ترجمة نص من نصوص أسخليوس يدّل على معرفته المتقدمة بالفكر اليوناني القديم وبلسانه، على الرغم من حداثة سنه، وعلى الرغم كذلك مما تكتنف ترجمة الشعر اليوناني من صعوبة. ولقد ألمح لويس عوض في مقدمة ترجمته إلى أدب أسخليوس عندما سجل أهم النقود التي وجهت إليه، قائلاً: «ولعل أهم الأركان في نقد أدب أسخليوس ثلاثة: أولها كلفه المسرف بفخامة اللغة وبجلال الشعر ورفعة الفكر إلى حد جعل أسلوبه موضع نقد القدماء، ومنهم من نبه، مثل أرسطوفانيس في كوميديا الضفادع بغلوه وافتعاله وشموخه فوق رؤوس السامعين»[21].

إن أهمية الفكر اليوناني وآثاره الأدبية بالنسبة لأدباء القرن التاسع عشر ولغوييه لا تخفى على أحد، فقد باتت آداب اليونان تدرس للناشئين منذ المراحل التعليمية الأولى، وفي هذا السياق نكتفي بالإشارة إلى المكانة التي باتت أعمال أسخليوس تحظى بها فقد ترجم عنه إلى اللسان الألماني واحد من أبرز مفكري القرن التاسع عشر ولغوييها، وليام فان همبولد (1767-1835)، سنة 1816[22]. ولقد قادت عناية دو سوسور بالفكر اليوناني وبلسان اليونان بعض الباحثين المحدثين إلى البحث عن صلات قربى، أو خصائص مشتركة بين لسانيات دو سوسور وسيميائياته والفكر الفلسفي اليوناني، ولقد برزت، من ضمن ما حقق من مخطوطاته الجديدة، مجموعة تحمل عنوان «items»، وهي نصوص متكونة من فقرات قصار، اختلف الباحثون المحدثون في تاريخ

تحريرها، فمنهم من ردّها إلى التسعينيات من القرن التاسع عشر[23]، وهي في هذه الحالة معاصرة لكتابه «جوهري اللغة»، والمحاضرات الافتتاحية بجامعة جنيف، ومنهم من أخّرها إلى السنوات الأخيرة من القرن، أي ما بين سنتي 1897 و1900[24]، بل إن منهم من اعتبرها نصوصاً متأخرة جداً لما تتميز به الأفكار التي تنطوي عليها هذه النصوص من نضج. ولعل ما يلفت الانتباه من هذه النصوص اشتمالها على نظرات في فلسفة العلامة، والشبه الكبير مع نظرات الرواقيين الفلسفية حول العلامة. ولقد بدت ملامح الشبه بين الفكريْن توحي إلى علاقات تأثير وتأثر، لاسيما على المستوى المصطلحاتي، فقد اقترض دو سوسور عدداً من المصطلحات عن اللسان اليوناني، إذ استعملت هذه النصوص مصطلح «sème» للدلالة على مصطلح العلامة بدلا من المصطلح «signe»، الذي يشيع استعماله في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ومصطلح «sème» هذا مقتبس، عن طريق النقحرة، أي النقل الحرفي، من المصطلح اليوناني «óçìá»، أي سيما. والظاهر مما تناقله الباحثون المحدثون من أن دو سوسور كان لجأ إلى هذا المصطلح كي ينأى عن مصطلح «signe» الذي لا يوحي استعماله الشائع إلا إلى الجانب المادي من العلامة[25]، كما يوحي إليه تعريفه للمصطلح الجديد بقوله: «إن كلمة «sème» تزيل، أو تسعى إلى إزالة كل هيمنة، أو كل فصل بين الجانب الصوتي والجانب الفكري للعلامة. إنها تمثل العلامة كلّها، أي العلامة والمعنى كما لو كان مجتمعين في شخصية واحد»[26]. ولئن بدا مصطلح «sème» مصطلحاً جديداً بالنسبة لمتلقي فكر دو سوسور اللسانياتي لاعتيادهم على مصطلح العلامة «signe» الذي روج له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فإنه، أي المصطلح «sème» مصطلح متداول في أدبيات سيميائيات غريماس وقد نقله الباحثون العرب المحدثون إلى اللسان العربي بمصطلح السيم، وليس علينا أن نتبع أن التقليد. وإنما نظرنا في المعجم العربي فوجدنا لفظة السام وهي تطلق على معاني، منها للدلالة على الموت ومنها للدلالة على الذهب، وللدلالة على الخيزران، ومنها للدلالة على السم، ومنها أيضاً للدلالة على الأبرص. وإنّا لا نرى أي حرج في أن نضيف لهذه الدلالات دلالة العلامة. ولقد قاد انزياح مصطلح العلامة في أدبيات لسانيات عصره عن الكلية التي يجب أن يدل عليها، أي المجموع المكون من الجانب المادي والجانب الفكري، إلى اتخاذ مصطلح «sème» واشتقاق مصطلحين آخرين يعبران عما يراد بها اليوم بالدال والمدلول، وهما مصطلحي «aposème»، و.«parasème» لقد كان دو سوسور لا يركن البتة إلى المصطلحات التي تداولتها أدبيات لسانيات عصره، كما لم يكن سريع الاطمئنان للمصطلحات التي كان يستخدمها، ولقد لخص فرانكو لو بيبارو الغاية التي كان يرجوها دو سوسور من خلال لجوئه إلى الاقتراض عن اللسان اليوناني فقال: «إن العقبة التي كان على دو سوسور تخطيها تتمثل في البحث عن اصطلاح يعبر، تعبيراً لا يعتريه اللبس، عن مسائل ثلاث هي: أولاً الطبيعة المزدوجة للسام، الذي قام مقام مصطلح العلامة، ثانياً ارتباط وجود الجانب المادي بوجود السام، وثالثا كون الدلالة مرتبطة هي الأخرى بالسام وإحالتها إلى سامات أخرى»[27].

وأما معرفة دو سوسور باللسان اللاتيني فقد تجلت هي الأخرى في ممارساته الترجمية، إذ قام بترجمة جزء من آثار اللاتينيين، فنقل إلى الفرنسية شيئا من أشعار هوراس، ولقد نقل الباحثان ميجية كيخانو وراستريبو مونتويو جانباً من هذه الترجمة، لكنها أشارت كذلك إلى أن دو سوسور، إلى جانب ممارسته للترجمة الشعرية في حداثة سنه، قام بدراسة تشبيهات هوراس ووقف عند العلاقة القائمة بين الموضوعات التي يحيل إليها الخطاب والمعنى المجازي الذي تنطوي عليه هذه التشبيهات[28]. وأما معرفته باللسان الألماني فقد تجلت في ترجمته، في أثناء مقامه بباريس، لمقال زميله بليبزغ، جوهان بوناك (1854-1928)، والغالب أن المقال هو «ملاحظات حول أشكال الضمائر في الألسن الآرية، واليونانية واللاتينية، الذي نشر بدفاتر جمعية باريس اللسانياتية سنة 1882[29]. ولقد كان دو سوسور أشار إلى هذه الترجمة في إحدى رسائله التي بعث بها إلى أمه، وهي منشورة ضمن الجزء الأول من كتاب كلوديا ماجية كيخانو حول سيرة دو سوسور[30]. ولئن دلت الترجمة على معرفة متقدمة باللسان الألماني، فإن دو سوسور كان متشبعا باللسان الألماني منذ صباه، وكنا أشرنا إلى محاولته الأولى التي سعى فيها إلى ردّ كلمات الألسن اليونانية، واللاتينية والألمانية إلى عدد محدود من الجذور، كما إن مقامه بليبزغ مكّنه من التفقه في هذا اللسان أكثر من غيره من الألسن الأجنبية لاتصاله المباشر به وبالثقافة الألمانية، لمدة تزيد عن أربع

سنوات، بليبزغ أولا، ثم ببرلين فيما بعد. ولـم ينتههِ اهتمام دو سوسور بالترجمة عند هذا الحد من الممارسات، بل إن فكره اللسانياتي كثيرا ما كان يقيم مع الترجمة ونقدها جسوراً نظرية، فقد أشار الباحثون أيضاً إلى دو سوسور كثيراً، في أواخر حياته، أي في فترة تدريسه لمادة اللسانيات العامة التي تمخّض عنها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنشور من قبل شارل بالي وألبير سشهاي، يلجأ إلى الترجمة بغية تفسير عدد من المسائل اللسانياتية. فقد أشار مثلا في خضم السنة الجامعية الثالثة من دروسه في اللسانيات العامة إلى الدور الذي تضطلع به الترجمة في نقل الثقافات والألسن، وكيف يمكن للغوي الاستفادة من أعمال المترجمين[31].

*** مراسلات دو سوسور العلمية: الشعر العربي**

تحتل المراسلات العلمية موقعاً متميزاً من فكر دو سوسور اللسانياتي لأنها كثيراً ما تميط اللثام عن جوانب، كثيراً ما كانت خفية، من مغامراته الفكرية، وهي فضلاً عن ذلك معيناً لا ينضب لكل ذي عناية باهتماماته الأخرى. ولقد كنا في مناسبة أخرى كثيراً ما لجأنا إلى عدد المراسلات العلمية التي تزامنت مع الإعداد لمشروع نشر كتاب «المحاضرات في اللسانيات العامة» من قبل شارل بالي وألبير سشهاي، وأبرزنا هنالك دورها الفاعل في الكشف عما خفي من هذا المشروع. كما أن هذه المراسلات، لاسيما تلك التي تشارك فيها دو سوسور مع عدد من معاصريه، لا يقتصر دورها في إبراز عدد من الظروف الخارجية التي أحاطت بتطور فكره العلمي، بل إنها غالبا ما تسهم في حسن تمثله، كما هو الشأن مثلا بالرسالة التي أحطنا بها خبراً من قبل، وعرّفتنا بسمة التعالق القائمة بين عدد من مخطوطاته، أو ما أسميناه بالتناص الداخلي الماثل في كتاباته ومحاضراته.

لقد كانت له مراسلات غزيرة على الرغم من ثقل مسؤولياته الإدارية، والتعليمية، والبحثية، وهي من هذه الناحية تبدد الفكرة القائلة بأنه كان رجلاً منطوياً، لا يرنو إلى نتاج غيره الفكري إلا لماماً، ومفكراً ميالاً إلى العزلة إلا إذا اضطرته الحاجة إلى التواصل. إن في هذه الفكرة الرائجة في عدد من دوائر الفكر اللسانياتي العربي كثير من الإفراط، وقليل من التفريط، ونحسب أننا لا نغالي لو زعمنا أن الجانب التراسلي من فكر دو سوسور لا يزال هو الآخر بحاجة إلى اهتمام من قبل الباحث العربي لـما تستكشفه هذه المراسلات من خبايا، وهي تعد من هذا المنظور واحدة من الوثائق التي أضحت عند مؤرخي اللسانيات مصادِرَ لا يمكن الاستغناء عنها. وليس هذا ديدن تاريخ اللسانيات فقط بل إن تاريخ العلوم عموماً لا ينفك يستقصي من فن التراسل ما أورده العلماء وتناقلوه من ظروف خاصة أحاطت بإنجازاتهم الفكرية. فالتراسل كان أهم طرائق التواصل العلمي بين الباحثون والعلماء ولا يزال، وإن اختلفت طرائقه في العصر الحالي، وظلت المراسلات حتى نهاية القرن التاسع عشر وعقود متوالية من القرن العشرين تعبر عن جوانب فكرية لا يجد لها الباحث المعاصر حضوراً في كتب هؤلاء العلماء، بل كثيراً ما وجب اللجوء إليها قصد تفسير أمور أوجزوها فيها أو استغنوا عن ذكرها.

وبعدُ، فقد كانت لدو سوسور مراسلات علمية أشرك فيها عددا من معاصريه جملة من مسائله العلمية التي نظر فيها، وأطلعهم على بعض من تصوراته الفكرية التي لاحت له. لقد راسل، وراسله، أنطوان مايي (1866-1936)، وشارل بالي (1867-1947)، وبودوان دو كورتوني (1845-1929)، ولويس هافي (1849-1925)، وجيوفاني باسكولي (1855-1912)، وماكس فان برشام (1863-1921)، وفيل تموسون ()، ولقد جمعت الباحثة كلوديا ماخيا كيخانو جميع مراسلات دو سوسور في مؤلف واحد[32]. ولئن كنا نروم التوكيد على ما تبرزه هذه المراسلات من مسائل قد لا يسعنا الاطلاع عليها إلا من خلال التنقيب في هذه المراسلات، فإن اهتمامه بالشعر العربي خيرُ مثال على ذلك، وإنها لعمري لمسألة لـم نجد من الباحثين المحدثين من أشار إليها ولو الإشارة العابرة. لقد كان ماكس فان برشام ممن امتهن الأركيولوجيات «archéologie» الإسلامية، وفضلا عن صلة القرابة التي كثيراً ما كانت تقربه بدو سوسور منذ صباهما، فقد أسهم مشوارهما العلمي في توطيد هذه العلاقة وتمتينها طوال حياتهما. ولئن أكملا تعليمهما الابتدائي بالمدرسة نفسها بجنيف، والتحقا معا بجامعة ليبزغ الألمانية، ليتحصلا منها على دكتوراهما، فإن اهتماماتهما العلمية سرعان ما افترقت السبل بهما، إذ بينما اتجه دو سوسور نحو مدارسة الألسن، انكب فان برشام على دراسة الحضارة الإسلامية ولسانها العربي، وتناول في دكتوراه موضوع «الملكية الإقليمية والضريبة العقارية في عهد الخلفاء الأولين»[33]، وهي

الرسالة التي تطورت عن مشروع ترجمة فصل من كتاب الماوردي حول ضريبة الخراج، وإنا نحسبه، استنادا إلى إشارة برشام في دكتوراه، الباب الثالث عشر، في وضع الجزية والخراج من كتابه الأحكام السلطانية[34].

وإنا نُقدم ههنا على افتراض فرضية لا نحسب أنها تنتفي إلى الصحة نظرا لصلة القرابة، وحجة الصداقة، وكثرة الاهتمامات المشتركة بين برشام ودو سوسور، العلمية والفنية والأدبية واللغوية، فرضية دعواها اطلاع دو سوسور على جانب غير قليل من الحضارة الإسلامية، بمناسبة لقاءاتهما الكثيرة ومحاوراتهما المثيرة. ولقد أشار أنور لوكا إلى أن ترتيب برشام لمراسلاته مع دو سوسور ضمن طائفة المراسلات العلمية وليس ضمن طائفة المراسلات العائلية لدليل على أن الرجلين كثيرا ما كانا يستشيران بعضهما في كثير من المسائل التي شغلتهما[35]. ولعل الرسالة التي بعث بها دو سوسور إلى برشام بتاريخ 25 جوان 1910 فيها من الدلائل لما جئنا على ذكره، وإننا ننقلها ههنا على النحو الذي يلي. يقول دو سوسور في رسالته «عزيزي ماكس. ألف شكر على الرأي الذي أسديته إلي وعلى الدعوة التي أرفقتها به لأحضر إلى مدينة كران للاطلاع على الكتب. لست أعلم متى يحين ذلك، لكنني سأسعى إلى ذلك. سيكون لقائي بك من دواعي سروري، وإني لست من جهة أخرى أنسى مسألة، «Ragnars Saga» التي قادتني إلى محاورتك عن الأصول العربية»[36]. إنها واحدة من مجموعة من الأساطير الإسكندينافية التي تتألف من خمس وعشرين أسطورة[37]، ولسنا نعلم ما إذا كانت هذه المحاورة استفساراً من دو سوسور عن أصول عربية محتملة لهذه الأسطورة، أم إنه احتمال يعبر عنه إلى صديقه برشام، ولو كنا نستطيع الاطلاع على الرسائل التي بعث بها برشام إلى دو سوسور لأمكننا التحقق من هاتين الفرضيتين.

***دراسة البِنيات الإيقاعية**

لم تنل بحوث دو سوسور في الأدب والشعر اهتمام الباحثين المحدثين، فقد غيّبت هيمنة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة وسطوته على العقول مائة عام خلت، هذا الملمح من فكره الغزير، على الرغم من العلاقات الوشيجة التي باتت مخطوطاته المنشورة حديثا تبرزها بين تفكيره اللسانياتي والسيميائياتي وبحوثه في الأسطورة والجناسات التصحيفية. أما الأولى، ونعني بها بحوثه في الأسطورة، فهي مجموع البحوث التي باشرها منذ جوان 1903 إلى غاية أبريل 1911، وهي تعنى، إن جاز التعبير الحديث، بالتحليل البنوي للأسطورة، لاسيما الأسطورة الجرمانية، وعلم الأساطير المقارن. وقد ترك في هذا المجال من البحث كماً كبيراً من المخطوطات المودعة بمكتبة جنيف. وأما بحوثه في الجناسات التصحيفية فهي مجموع البحوث التي باشرها من نهاية سبتمبر 1905 وامتدت حتى نهاية محاضراته في اللسانيات العامة التي ألفها بجامعة جنيف خلال السنة الجامعية (1910-1911)، شهر جوان 1911. وفضلاً عن هذا التزامن التاريخي بين الدرس اللسانياتي والاهتمام الأدبي، فإن كثيرا من أفكاره في السيميائيات منشؤها هذه البحوث الأدبية، على نحو ما بينه الباحثون مما اتصل بمسألة العلامة. لم ينجُ مفهوم العلامة من الخلل، شأنه شأن كثير من المفاهيم التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسور، ومرد هذا الخلل في نظر فرانسوا راستيه إلى الاختزال الذي مارسه عليه شارل بالي وألبير سشهاي، فقد قدماً العلامة على أنها كيانٌ مستقل عن باقي العلامات المجاورة، سواء أكانت المجاورة خطية أو استبدالية، وعلى أنها مكونة من دالٍ ومدلول، لكل منهما استقلال ذاتي[38]. صحيح أن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أشار في بعض مواطنه إلى المستويين التركيبي والاستبدالي، بيد إن المخطوطات التي عثر عليها تستخدم تمييزاً آخر. لقد ميز دو سوسور بين الكلام الفعلي، الموجود حقيقية والكلام الكامن، أما الكلام الفعلي فهو كل تركيب ناجم عن تواجد عدد من العناصر ضمن جزء من الكلام، وأما ما هو كامن من الكلام فهو مجموعة العناصر المدركة من قبل العقل ومرتبطة فيما بينها[39]. ولئن أبنّا إلى كتاب المحاضرات ورمنا التعرف على التصور الذي يروجه عن العلامة اللسانية لألفيناه يسند إليها مبدأين رئيسين هما مبدأا اعتباطية العلامة اللسانية وخطية الدال، وهما مبدأن لا يخلوان من ضبابية.

وعلى الرغم من اجتهادهما في الوفاء لتصور دو سوسور عن العلامة، فإن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي وضعاه يختزله اختزالاً شنيعاً، إذ

فضلاً عن تصورهما العلامة مستقلة عن باقي العلامات المجاورة لها، وتجريدها عن وجودها الخطابي، جرداها من ميزة ثانية تكاد تكون جوهرية، هي خاصية تبليغها. إن للعلامة حركيةً عبر الزمن ليست في نظر دو سوسور ميزة خارجية عنها، بل هي في حقيقة أمرها ميزة داخلة جوهرية فيها، مُؤسِّسةً لها. ولقد تنبه جُوان فهر إلى هذه الميزة المنسية من فكره سوسور، ولكن الطريف أنه لا يستند في إثباتها إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، أو إلى سائر أعماله اللسانياتية سواء المخطوطة أو تلك التي تم تحقيقها ونشرها مؤخرا، وإنما اجتهد في توكيدها باستطلاع أعماله حول الأساطير[40]. ولقد كان دو سوسور، بالتوازي مع أعماله في اللسانيات العامة، واللسانيات التاريخية والمقارنة، وغيرها من اهتماماته اللسانياتية، يجتهد خلسة بعيداً عن مسامع معاصريه من اللسانيين وأنظارهم في فك بعض رموز نصوص أدبية، منها نصوص عن الأسطورة الجرمانية وعلم الأساطير المقارن، وأخرى عن الجناسات التصحيفية. بيد إن مقاربة تصورات دو سوسور الأدبية ليس مشروعاً يمكن الاضطلاع به في الوقت الراهن، ولعله مجازفة لا تخلو من مخاطر، لعدم تحقيق مخطوطاته المودعة بمكتبة جنيف ونشرها عن آخرها حتى يصل الباحث إلى تكوين فكرة عامة، شاملة، عنها. لكن ما أضحى معلوما من اهتمامات دو سوسور الأدبية أنه اهتم بمسائل تتصل بالأصول التاريخية للأساطير الجرمانية والاسكندنافية وانتقالها، ولقد كان تكوُّن الشخصيات الأسطورية أهم المسائل التي نظر فيها، ولقد باتت في تصوره رموزا إلى تحولات متوالية عبر الزمن في الحياة الاجتماعية، وهي في الآن ذاته موضوعات سيميولوجية يتوجب البحث في طرائق عملها[41]. إن النصوص التي اطلع عليها تستنوار بمكتبة جنيف، وهي تبحث في الأسطورة، تستكشف طابعها السيميولوجي.

وفي بعض صفحات هذه المخطوطات يبرز دو سوسور هذه الميزة بقوله: «إن دراسة الأساطير تشترك في ميدان اللسانيات المتاخم لها في كونها تستظهر كائناً لا وجود له، من مثل الكلمة، والشخصية الأسطورية، والحروف الأبجدية، التي ليست سوى أشكال مختلفة من العلامة، بمعناها الفلسفي»[42]. ولئن كان تحول العلامة عبر الزمن وانتقالها من جيل إلى آخر تعد خصيصة كامنة فيها، غير منضافة إليها، لا نجد لها حضورا في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، فإن الكتاب ذاته لم يعبر فضلا عن ذلك تعبيرا صادقا عن طبيعة العلامة اللسانية ولا عن المفاهيم المتصلة بها، وهو ما يفسر جملة النقود التي وجهت إلى تفكيره، لاسيما فيما تعلق بمبدأي الاعتباطية وخطية الدال. وفضلا عَن هذا التقصير في إيراد جميع الخصائص المكونة لمفهوم العلامة، لم يتنبهْ شارل بالي وألبير سشهاي إلى التعدد الدلالي التي اكتنفه، فلقد تبين لسيمون بوكي، بما توفر له من مخطوطات، أن دو سوسور كان يستعمل مصطلح العلامة دالاً تارة على الوحدة القائمة بين المفهوم والصورة الصوتية، وتارة أخرى يقتصر مدلوله على الصورة الصوتية[43].

ولئن كان اهتمام دو سوسور باللسانيات لا ينفك عن اهتمامه بالأدب والشعر والترجمة، فإن عنايته بالشعر العربي تستند إلى هذه الرابطة الوشيجة، لكن عثورنا على عدد من مراسلاته مع ماكس برشام أتاح لنا فرضية اندراج هذا الاهتمام ضمن اهتمامه بالشعر عموما، وخصوصاً دراساته حول نظم الشعر، ومنها دراساته حول البِنيات الإيقاعية في اللسان اليوناني، والتنغيم البلطيقي، ومنها الرسالة التي بعث بها إلى ماكس برشام يكتب إليه ما يلي: «عزيزي ماكس. عذراً على إزعاجك في استراحتك الألبية، أريد فقط أن أستفسر منك إذا ما كان نظم الأشعار عند العرب يستند إلى مبدأ مقطعي «syllabique»؟ = عدد المقاطع، أو نبري «accentuel»؟، أو كمي «quantitatif»؟ لأني لا أجد، حالياً، سوى هذه المبادئ الثالثة الممكنة لنظم الشعر، وغالباً ما يشترك مبدأان معاً من هذه المبادئ في ذلك. لا يمكنني أن أذكر سوى نظم الشعر اليوناني الذي يقوم على مبدأ الكمية. إن معظم الأنساق تبرز تأليفاً بين المقطعية والنبر، أو النبر والكمية، أو الكمية والمقطعية، إلخ. ولئن وسعني الاقتصار، فيما أرومه، على الألسن الهندية الأوروبية، فإنه يهمّني معرفة ما إذا كان هنالك أصل آخر، غير النبر والكمية وعدد المقاطع، اكتشف كعنصر من عناصر الإيقاع «rythme»، ومن ثم للبيت الشعري. أجبني عندما يسنح لك الوقت، وشكراً مسبقاً»[44].

من الظاهر أن اللسان العربي لم يكن من بين الألسن التي كان لدو سوسور دراية بها، لكنه اجتهد في الولوج إلى عالم الإيقاع في الشعر العربي من طريق الكتاب الذي أرسله إليه صديقه ماكس فان برشام، وهو كتاب المستشرق ستانيسلاز غيار (1846-1884)، «نظرية

جديدة في عروض الشعر العربي»[45]، على نحو ما يكشف عنه في الرسالة التي بعث بها لبرشام في التاسع من شهر جويلية 1906، «عزيزي ماكس. لقد وصلتني رسالتك أمس، واستلمت اليوم مجلد غِيار الذي كنتَ أخبرتَني عنه. وإني لأشكرك على الاثنين. إن كل ما كتبه غيار الفذ، والذي لازلت أحتفظ بذكرى جلية عنه، كله واضح ولقد أحسنت الاختيار في إرشادي إلى ما يجب أن أقرأ بخصوص موضوع أجهله من كل جوانبه، من مثل الشعر العربي. وإنه من اليسير جداً متابعته في المسائل العامة، بيد إنه من العسير تتبعه في المسائل الجزئية، عندما يلج إلى الفيلولوجيات العربية الخالصة. أشكرك مرة أخرى على هذا الإرسال»[46]. والكتاب مؤلف، كما هو بين أيدينا، من مقدمة وثلاثة أبواب، أما الباب الأول فيعرض لبحور الشعر العربي، وأما الباب الثاني فيعرض لأنواع هذه البحور، وأما الباب الثالث فيعالج مسألة الإيقاع في الكلمات. والنظرية التي أسس لها ستانيسلاز غيار في كتابه هذا تستند إلى القول بأن أصل بحور الشعر العربي القديم ومنشأه طبيعة الكلمات العربية ذاتها، أي أن الإيقاع الخاص بالكلم العربي هو الرافد الرئيس لتشكيل العروض العربي[47].

يبدو لنا أن دو سوسور لم يجد ضالته على إثر قراءته لكتاب غِيار، على الرغم من أن الكتاب اجتهد في تبيان طبيعة إيقاعات الشعر العربي القديم، واستدعى لأجل وصفها مفاهيم متداولة وأخرى ابتكرها من مثل المفهوم الذي يدل عليه مصطلح «ictus» قصد تمييز عن مفهوم «accent tonique». ولأجل ذلك، فإن مسألة عناية دو سوسور بالشعر العربي تبقى مسألة عالقة، ونحن ما نزال نرتقب تحقيق مزيد من مخطوطاته المودعة بمكتبتي جنيف وهارفارد، ونشرها، كي يتبين الباحثون مما وضعوا من فرضيات حول مشروعه اللسانياتي، والفلسفي، والسيميائياتي، وما ركنوا إليه من مسلمات حول اهتماماته بالشعر.

د. مختار زواوي/ الجزائر
جامعة جيلاني اليابس/ سيدي بلعباس
كلية الآداب واللغات والفنون

★ الهوامش والمراجع

(1) F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye avec la collaboration de A. Riedlinger, édition critique de T. de mauro, Paris, Payot, 2005, p. 317.

(2) C. Mejía Quijano et N. Restrepo Montoya, «F. de Saussure, traducteur», Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 61, 2008, pp. 175-177.

(3) إسخليوس، أجممنون، تر. لويس عوض، القاهرة، الدار القومية للنشر والتوزيع، د. ت.

(4) Wilhelm von Humboldt, Aeschylos Agamemnon, Leipzig, Bei Berhard Fleischer, 1816, pp. 73-101.

(5) S. Bouquet, Introduction à la lecture de Saussure, Paris, Payot & Rivages, 1997, p. 280.

(6) R. Engler, «European Structuralism: Saussure», in Current trends in Linguistics, vol. 13, Historiography of Linguistics, The Hague-Paris, Mouton, 1975, p. 840.

(7) F. Lo Piparo, «Saussure et les Grecs», Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007, p.140.

(8) F. de Saussure, «Anciens Items (Edition Engler 1968-1974)», in Ecrits de linguistique générale, p. 105.

(9) F. Lo Piparo, «Saussure et les Grecs», pp. 142-143.

(10) C. Mejõa Quijano et N. Restrepo Montoya, «F. de Saussure, traducteur», p. 177.

(11) Ibid.

(12) C. Mejõa Quijano, Le cours d'une vie. Portrait diachronique de Ferdinand de Saussure, Tome 1, Nantes, Cécile Defaut, 2008, p. 369.

(13) C. Mejõa Quijano et N. Restrepo Montoya, «F. de Saussure, traducteur», p. 177.

(14) C. Mejia Quijano, Une Vie en Lettres, (1866-1913): Ferdinand de Saussure, Paris, Cecile Defaut, 2014.

(15) M. Van Berchem, La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes. Etude sur l'impôt du Kharâg», Genève, Librairie de l'Université, 1886.

(16) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح. أحمد مبارك البغدادي، الكويت، مكتبة دار بن قتيبة، الطبعة الأولى، 1979، صص. 181-200.

(17) A. Louca, «Lettres de Ferdinand de Saussure à Max van Berchem», Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 29, 1974-1975, p. 25.

(18) Idem, p. 32

(19) R. Broyer (tr.), Sagas légendaires islandaises, Textes traduits annotés avec le concours de J. Renaud, Toulouse, Anacharsis Editions, 2012.

(20) F. Rastier, Saussure au futur, Paris, les Belles Lettres, 2015, p. 64.

(21) F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002, p. 61.

(22) J. Fehr, Saussure entre linguistique et sémiologie, tr. P. Caussat, Paris, P. U. F., 2000, p. 118.

(23) P.-Y. Testenoire, Littérature orale et sémiologie saussurienne, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz (dir.), En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012, p. 62.

(24) Bibliothèque de Genève (BGE), Ms fr. 3958/9, fol. 21r., repris dans P.-Y. Testenoire, Littérature orale et sémiologie saussurienne, p. 63.

(25) S. Bouquet, «Benveniste et la représentation du sens: de l'arbitraire du signe à l'objet extra-linguistique», Linux, n° 9, 1997, p. 117.

(26) A. Louca, «Lettres de Ferdinand de Saussure à Max van Berchem», p. 35.

(27) S. Guyard, Théorie nouvelle de la métrique arabe, précédée de considérations générales sur le rythme naturel du langage, Paris, Leroux, 1877.

(28) A. Louca, «Lettres de Ferdinand de Saussure à Max van Berchem», p.36.

(29) S. Guyard, Théorie nouvelle de la métrique arabe, p. 37.

بتقليص الضرائب، والجمعيات البيئية في الأحياء السكنية، والزراعة البيولوجية، والاقتصاد التضامني... فضلاً عن آلاف المبادرات التي ترمي لعيش أفضل، وهي كلها مبادرات يتزايد عددها في فرنسا وفي العالم بأسره. وهذا الحماس الفياض الذي لا يلتفت لا إلى الحكومة، ولا إلى الأحزاب، ليعد المكسب الحقيقي لمايو 68، لكن في ظل ظروف جديدة.

أدغار موران/ فرنسا

ترجمة عن الفرنسية: **د. محمد محمود مصطفى**
[جامعة ملقا - إسبانيا]

★ هوامش ومراجع

(1) إدغار موران (1921) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي يحظى بشهرة دولية لعمله في مجال فكر التعقيل Pensée complexe .

(2) الثلاثون المجيدة هو تعبير يشير إلى الثلاثين عاماً التي أعقبت الحرب العالمية الثانية (1945 إلى 1975) . وكان أول من استخدم هذا التعبير هو عالم الديموغرافيا الفرنسي جان فوراستييه.

(3) جيمس دين (1931 - 1955) ممثل أميركي شهير يعد أيقونة ثقافية بالنسبة للمراهقين، من أشهر أفلامه «متمرد بلا قضية» (1955) .

(4) مارلون براندو (1924 - 2004) ممثل ومخرج أميركي، كن له تأثير ثقافي هائل على أفلام القرن العشرين.

(5) جوني هاليداي (1943 - 2017) مغني روك آند رول فرنسي شهير، صدر له 79 ألبوماً فاقت مبيعاتها 110 ملايين اسطوانة.

(6) هربرت ماركوزه (1898 -- 1979) فيلسوف ألماني ـ أمريكي. كما كان مفكراً سياسياً وعالم اجتماع. يعد أحد رموز مدرسة فرانكفورت.

(7) هنري ليفير (1901 - 1991) عالم اجتماع، وفيلسوف ماركسي فرنسي، عرف بنقده للحياة اليومية.

(8) التروتسكية نسبة إلى ليون تروتسكي (1879 - 1940) . وهو ثوري روسي، ومنظر ماركسي، تم اغتياله في المكسيك. والماوية تنسب إلى ماوتسي دونغ (1893 - 1976) ثوري شيوعي صيني يعد الأب المؤسس لجمهورية الصين الشعبية.

(9) كورنيليس كاستوريا ديس (1922 - 1997) فيلسوف فرنسي - يوناني، كما كان ناقداً اجتماعياً، وعالم اقتصاد، ومحلل نفسي. من أهم أعماله «مؤسسة المجتمع الوهمية».

(10) كلود لوفور (1924 - 2010) فيلسوف وناشط فرنسي تتلمذ على يد موريس ميرلو ـ بونتي.

(11) جان بول سارتر (1905 - 1980) فيلسوف، وكاتب، وروائي ومسرحي فرنسي شهير حصل على جائزة نوبل في الأدب، لكنه رفض استلامها.

(12) موريس كلافيل (1920 - 1979) سياسي وكاتب شارك في المقاومة ضد الاحتلال النازي لفرنسا.

(13) الماركسية اللينينية هي فلسفة تجمع بين أفكار كارل ماركس ونظريته الاجتماعية ـ الاقتصادية، وبين أفكار لينين السياسية.

(14) عصابة الأربعة هي جناح سياسي تألف من أربعة من مسؤولي الحزب الشيوعي الصيني. اشتهرت عصابة الأربعة أثناء الثورة الثقافية في الصين (1966 ـ 1976)، ونفذت عدداً من الجرائم راح ضحيتها ملايين البشر.

(15) هوشي منه (1890 -- 1969) ثوري فيتنامي شيوعي، كان رئيساً لفيتنام في الفترة من 1945 إلى 1969.

(*) الترجمة عن:
Les Hors - Série de L'OBS, N° 98, 2018, p. 7-11.